العقل البشري

للقاص الارجنتيني ادواردو ماليا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

يعتبر ادواردو ماليا (ولد عام ١٩٠٣ في باهيا بلانكا ، بالارجنتين) في طليعة قصاصي اميركا اللاتينية المعاصرين . وقد صدرت له عام ١٩٢٦ مجموعة قصص مدهشة بعنوان « قصص لانكليزية يائسة » وبعد عشر سنوات ضم في مجموعة بعنوان « المدينة على شاطىء النهر الخالد » سلسلة من القصص تكشف ، عبر تجارب شخصية ، حضور المدينة الكبيرة ، وقلق البشر ، ووحدة كل كائن ضائع في ذاته كأنما هو ضائع في لبيرنت من الاحلام والشكوك . ويرى القارىء مؤلف هذه القصص يتابع بدقة مرهفة الصيرورة الداخلية لشخصياته . فكأنما عينه عدسة سرمدية اليقظة تلتهم كل التفاصيل والاحداث ، وكأنما القارىء ازاء فن للتشريح النفسي . وقصة « العقل البشري » الذي اقدمها هنا للقارىء العربي ، هي احدى قصص تلك المجموعة التي سبقتها مؤلفات اخرى لماليا اشهرها « ليل اوروبي » (١٩٣٤) و « قصة عاطفة ارجنتينية » (١٩٣٥) واخيرا « عيد نوفمبر » (١٩٣٨) . وتبلغ قصة « العقل البشري » ذروة رفيعة من تحليل الشك والقلق الذي يعتري الانسان في كثير من ظروف حياته، ويظل من ذلك في اضطراب أبدي هو ضعف الانسان وقوته في الوقت نفسه ، ولا شك في ان نهاية القصة التي ترمز الى ضياع الانسان ضياعا سرمديا لا مرفأ امان بعده هي من ابرع النهايات في القصص الاجنبية .

« المترجم »

ابتعد وكيل التأمينات سيلادونيو مونتوفيو ، بخطى سريعة ، عن البيت الصغير النائم الذي كان ينصب سمته البيضاء وسط اشجار غار « اوليفوس » ، والذي سيصبح ملكه كليا بعد ان يسدد الاستحقاق التالي ، ثم قفز الى الاوتوبيس القادم من « التيغر » الذي كان يقصد معه المدينة كل يوم . وكان سعيدا كل السعادة تقريبا : ان بوسعه ان يتقاعد عما قريب ، وسيصبح البيت الذي كان يشغله ملكه نهائيا ! ولقد داعب هذا الحلم وقتا طويلا ، وان يراه الان وهو يتحول الى واقع محسوس ، كان ذلك يضفي على روحه دفئا جديدا ، نوعا من الهناءة الغامضة الرخية . ولم يكن له اي هم اخر تقريبا . فان المدير المعاون الذي كانت تحدث له معه منازعات مريرة مذلة ، كان الان ينزع الى الغروب ، فريسة مرض خطير ، مما اشاع بين الموظفين مرونة مرحة او جذلا جديدا . اما مصاعب اخته « ادلين » التي سبب زوجها ، اي صهره الوانا كثيرة من المتاعب بسبب ادمانه على الخمر ادمانا عصبيا هجوميا ، فانها تزول شيئا فشيئا اذ يدخل الزوجان ، بتأثير سحري ، في جو من الامن ، وقد بدا عليهما فيض من الفرح في زيارة اخيرة قاما بها لمنزل « اوليفوس » .وهكذا كانت عوامل الاطمئنان والسكينة تبرز له خالصة غير مشوبة .

وفكر وهو في الاوتوبيس بان امرا واحدا كان ، على تفاهته ، يعذب ركنا صغيرا من روحه . وما كان يستحق قط ان يفكر فيه لولا ان فكرة ملحة تشبه نغمة موسيقية تتردد بعناد في مسامعنا كانت تجهد في ارسال شيطان الشك الى عقله . ومع ذلك ، الم تكن في حقيقتها فكرة صبيانية ؟ ان شخصا اخر اوفر ثقة منه كان يدفعها عنه على الفور ، ولكن عوامل التشاؤم كانت تستولي عليه دائما مهما بلغت من التفاهة ، وحين تكون القضية ان يشعر بانه ضحية شيء ما ، فانه يبدو ابدا منزوع السلاح ازاء ادنى الافكار السوداء . وقد كان من شدة الادراك لنفسه انه لم يكن يجهل او ينسى هذه السمة من طبعه التي كان يختفي خلفها عنصر ضعف واضح .

وكان في الاوتوبيس ذلك الصباح اولئك المسافرون انفسهم من رجال الاعمال وعمال المتاجر ومحترفي المهن الصغيرة ، وتلك النساء اللواتي كن يظهرن كل يوم عند المحطات بوجوه مزينة مصبوغة بشكل متشابه حتى ليخيل انهن الرمز الالي للتكرار . لقد كانوا يلتقون منذ اعوام ، كل يوم تقريبا ، ولم يكونوا يتبادلون معه اية اشارة او تحية . وانما كانوا يقولون لانفسهم ، في نظرة خفية ولكنها اليفة ، بانهم قد عرفوا بعضهم بعضا .

وكان يجد من غير المعقول ان يتقبل تلك الفكرة التي لم تكن تنى تتردد عليه . فبالرغم من الاهواء الغريبة التي كان ينسبها دائما الى زوجته اليس ، فقد كانت ابدا بالنسبة اليه اودع انسان واشده تعلقا ، ولم يكن يسعه الا ان يعترف بالصبر المخلص الذي رافقته به في فترات الحياة السيئة . كان يبدو عليها انها تبنت منذ الصغر هذه الهيئة الكتوم ، وتلك النزعة الى الصمت والى الامحاء والى اللجوء المفاجىء الى مناطق للبكم تبدو انها نتيجة الازدراء . على ان هذا المسلك كان مرتبطا من غير شك بوعيها بانها كانت جميلة ، وانها كانت تختلف بعض الاختلاف عن سائر النساء ، وانها كانت محط النظر منذ عهد المراهقة الطرية بسبب نضارتها التي كانت تسترعي الانتباه . وقد اكسبها ذلك شخصية ومشية وسلوكا اعتبره الاخرون احيانا تعبيرا عن تعال مصطنع . ولعل هذا هو السبب في ان ادلين ، اخت زوجها، لم تكن تحمل لها ما كان ينبغي من الود والحب، وانها كانت سهلة الانزعاج من صمت اليس .

غير انه لم يكن للفكرة التي كانت تستولي عليه اية علاقة بذلك . فقد كان يعتقد بان الامر يتعلق بنزعته الى التفكير او الى الارتياب ، والى مزيد من المراقبة كان يشعر غالبا بانه يقوم بها ، حتى من غير ان يتنبه اليها . كانت القضية هي التالية : فمنذ وقت طويل ، كانت تنعقد

في بيته يوم الاحد اجتماعات اصدقاء. وكانوا يستمعون الى الموسيقى، ويتناولون فنجانا من الشاي فيما هم يتبادلون الاحاديث اللطيفة او يثرثرون في مختلف الشؤون . وكانت تلك عادة يحرصون عليها حرصهم على طقس ديني وكانت تمنحهما ، هو واليس ، فرصة للتسلية الودود. وكانت غرف البيت الصغيرة البيضاء ذات الستائر المزاحة تكسب تلك الاصائل المرصودة للمحادثة الهدوء الخاص الذي يمنحه الملك الشخصي للناس . وكان بين الاشخاص المدعوين غالبا عدد من زملائه المتزوجين ذوي المزاج المرح ، وفي بعض الاحيان صديقة عازبة لاليس ، ولم يكن يحضر هذه الاجتماعات ، الا نادرا ، بعض وجوه جديدة ، ذلك انه كان خجولا وكان يؤثر الا يعكر ، بعامل اجنبي ،جو المرح والفكاهة الذي كانت تنقضي فيه اصائل الاحاد . وكان يتردد الى منزل « اوليفوس » في مناسبات قليلة طبيب للشركة ، او تاجر ، او فنان مغمور من اولئك الذين لا يتحدثون قط عن الفن فلا يرهبون الناس بحذلقاتهم. وهو لا يذكر ـ افي كانون الثاني ام تموز ام ايار ام حزيران من العام الفائت ـ التاريخ الذي كان قد دعا فيه للمرة الاولى فالانتين بورديغيرا. ربما كان ذلك في كانون الثاني ، او في تموز ، فما كان له ان يحفظ التاريخ، ذلك ان طبيعة المدعو الجديد كانت تحمل على التفكير بكل شيء الا بان يحمل على محمل الجد : لقد كان زبونا للشركة ، وكانوا يعتبرونه عازبا ميسورا جدا ، يحقق هواياته ويحب ان يضحك الناس . وكان قد اتصل ببضعة وكلاء بواسطة « فيلازا » العجوز الذي كان اول من تعرف عليهم ، وكان بعضهم يحبون اصطحابه في روحاته الليلية : فقد كان بورديغيرا يمنح رفاقه آنذاك النكتة والخمر ويسارع الى دفع كل شيء. وكان سيلودونيو مونتوفيويجهل لماذا دعاه الى منزله للمرة الاولى. لعله كان مدفوعا بالغرور ، آفة الاغراء الكبرى ، حتى يميزه رجل يملك مزايا بورديغيرا عن سائر زملائه الفقراء العديمي التنظيم ، ويعرف انه كان يملك ذلك البيت الابيض حيث يستمع المدعوون يوم الاحد الى الموسيقى. وتصدر اليس احكاما واثقة على هذا الكتاب او ذاك مما كانت تقرأ. والحق انها كانت تميل دائما الى الادب،بالرغم من انها لم تكن تتكلم الا نادرا وانها لم تكن محظوظة معه اذ لم يكونا يحبان الكتب نفسها ، وحين اتيح لها ، في مناسبتين او ثلاث ، باول عهدهما بالزواج ، ان تصدر آراءها المتحمسة حول هذا الكتاب او ذاك ، اضطرت الى الصمت شيئا فشيئا اذ رأت ، خائبة ، الثقة واللهجة الفخمة التي كان يشرح هو بها حججا معاكسة . وكان يضحك لهذا الاختلاف ، ولارائه المتسلطة ، وعزم على تجنب تبادل الانطباعات التي تخلفها المطالعة ، لانها كانت تتصل لديه بمؤلفات اقتصادية ، وتتصل لديها بالشعر او بالتمثيليات. والحق ان اليس لم تكن بحاجة الى ان تقول شيئا عن نفسها ، وكانت تبدو ابدا غائبة ، وكانت عبارة ما تلفظ امامها بين حين واخر هي التي تضيء في عينيها شعلة مفاجئة خفية .

وكان يحب ان يراها تهتم بالمدعوين ، بقامتها الجميلة الانيقة ، وحركاتها العذبة ، وملاطفتها النبيهة ، هذه الملاطفة التي كان يخفق في داخلها احتراس ما ، ولكنها بسبب ذلك بالذات كانت تبدو اشد استعجالا.

وكانت مكلفة بان تصب الحليب والشاي صبا عادلا في فناجين البورسلين وان تختار الاسطوانات وان تتحدث الى المدعوين عن الشؤون العادية : ثمن السكر او نسبة نمو اشجار الغار او الطلح . ولم يفهم مونتوفيو قط السبب الذي كان يدعوها الى ان تغلق على نفسها الباب اغلاقا محكما مساء الاحد بحجة انها متعبة . وكان نوع من الامل والعصابية يستولي عليه في تلك الفترة ، وكان يظل في الطابق الاول ليأكل قطعة سمك او حلوى ، فيما هو يتابع الاستماع الى السمفونية التاسعة او الى الحان كوزي.

وتجددت زيارات الصديق بورديغيرا طوال اشهر الى بيت«اوليفوس». ولا بد من توضيح اسم هذا الصديق ، فالحق انه لم يكن قط صديقا لمونتوفيو ، وانما كان في نظره من هؤلاء الافراد الذين يؤخذون في مظاهرهم الخارجية لا في صميميتهم ، والذين يندر ان يكون بالامكان عقد صلات ودية متينة معهم . وكان مونتوفيو اميل الى اعتباره مشهدا لطيفا ، وقد ادخله الى بيته بهذه الصفة، بالاضافة الى الهالة الغامضة الساحرة التي تظهر حول المسرفين والاغنياء في نظر البورجوازيين. وهكذا رأى مونتوفيو تاثير بورديغيرا في بيته باوليفوس يوم الاحد ، التاثير اللطيف الذي كان يحدثه على اصدقائه ونسائهم ، وتميز حديثه ورهافته ، ومرونة افكاره ووجهات نظره .

كان مونتوفيو يجلس في مقعده المريح بالصالون بالقرب من اوزوريو او من كارلوس لاغوس ، وينعم برؤية امرأته ، عبر الباب الزجاجي الذي كان يفتح على مصراعيه يوم الاحد ، وهي تثرثر مع بورديغيرا . ولم يستشعر اول الامر الا الرضى ، لان هذا المشهد كان يحمله على الاعتقاد بان امرأته كانت تعرض وجهات نظر مرهفة امام انسان مرهف ، وكان هذا الرضى يشبه ما كان يستشعره كل يوم احد اذ يرى البهجة التي يحس بها الزوار وهم يلتهمون « الكريما » او وهم يعبرون عن اعجابهم بالستائر الجميلة،وباناقة غرف الطابق الاول بمصابيحها الدقيقةواثاثها الفيكتوري. ولكنه لاحظ ذات يوم ان امرأته وبورديغيرا كانا يلتمسان العزلة ـ لاحظ ذلك شاردا وبلا انتباه كما هو الشان دائما حين يكون مأخوذا بالمشهد الذي يظهر عليه مدعووه ، فتساءل : بم عساهما يتحدثان ؟ ونظر اليهما فرآهما في داخل غرفة الطعام واقفين بالقرب من قوس النافذة ، مستغرقين في احدى ثرثراتهما النموذجية الضاحكة. وتلاشى السؤال بسرعة هذه المرة ، ولكنه لم يلبث ان عاد. والواقع انهما ، يوم الاحد التالي والاحد الذي تلاه، تعجلا الانعزال من جديد واستغرقا في الموضوع الذي كان يهمهما وحدهما او يأسرهما . وحدث ذات مساء ان بقي مع زوجته التي لم تصعد الى غرفتها للاختلاء على عادتها فسالها بتحبب وابتسام وفضول عن الموضوعات التي كانت تتداولها مع بورديغيرا ، فسارعت اليس الى اجابته : « اننا نتحدث دائما عن المؤلفات ، عن الكتب .» فخلفه هذا الجواب حالما لانه لم يكن يتصور كيف يمكن ان يتحدث الناس هذا الحديث الطويل عن تلك الصفحات الكثيرة المطبوعة، اللامبالية .

وذات احد ، احس مونتوفيو احساسا غريبا . لقد كان شديد الاهتمام ، هو واليس ، بمدعويه ، وكانا ينتظران معا ان ينتهوا من شيء ليقدما لهم شيئا آخر ، وكانا يتقاسمان مهمة نقل الصحون والخدمة وتلبية الرغبات بسرعة . اما في ذلك اليوم ، فبعد ساعتين من تقديم المقبلات ، واذ هم بصب الخمر لاحظ ان اليس ، بدلا من ان تساعده ، كانت تتحدث في الحديقة مع بورديغيرا. واحس فجاة انه في وضع غريب مربك والصحفة في يده، وامامه مهمة ثقيلة . وظل لحظات جامدا، وهو يتمثل نفسه مسكينا شقيا تلقى على عاتقه السخرة برمتها .

وما لبثت اليس ان دخلت وهي تشع :

ـ هل اساعدك ؟

فاعطاها ، من غير ان يقول كلمة ، القدحين اللذين كانا انذاك في يده.

ولم يفكر في ذلك بعد، ولكن صدى بعيدا، مرا وعذبا في الوقت نفسه، صدى عبارة ملحة كئيبة اخذ يصدى في داخله. وتأمل يديه فلاحظ انهما كانتا يدي انسان متوحد، وان اليس لم يكن لها شأن بيديه. ولكنه سارع الى تبديد هذا الضباب وتلك الافكار التي كان يجترها، وانصرف كليا الى عمله واشغاله التي كانت تسير، في رأيه، على درب عريض يبعث على الرضى.

وكان قدمضى ثلاثة ايام فحسب علىتسلل الفكرة الى رأسه. وكانت فكرة يدافعها بجهد، ولكنها كانت هناك. حين عاد الى بيته، كان قد رأى اليس تعيد سماعة التلفون، في الوقت المناسب على ما خيل اليه، ثم تنهض بهيئة غريبة، وتلزم امامه صمتا رآه هجوميا مرا. وتساءل: هل تكون يا الهي قد فعلت « هذا » ؟ و « هذا »، الذي لم يكن يسمح لنفسه حتى بتسميته، كان عبارة عن علاقات صميمية وغير مشروعة مع بورديغيرا. وكان قد لاحظ اشياء غريبة، بعض الاضطرابات، وبعض الحركات الخفية السرية، بصرف النظر عن انها كانت تخرج بعد ظهر كل يوم، وانه لم يكن يعرف الى اين تذهب. على ان هذه الفكرة كانت غير معقولة، من جهة اخرى، وانها كانت بتأثير من الريبة! ذلك ان امرأته كانت الشرف نفسه بضبطها لذاتها وسلطتها، فما هي العوامل والاسباب الحسي الذي يدعوه الى هذا الشك ؟

وفي الصباح نفسه، حين هم بمغادرة البيت فسألها بالمصادفة وهي في غرفة الطعام عما ستفعله بعد الظهر، دهش من اللهجة النافدة الصبر، الجافة التي اجابته بها :

ـ ماذا تريدني ان افعل ؟ الاشياء التي علي ان افعلها. مشتريات وحاجيات.

ـ أية حاجيات ؟

ـ الحاجيات العادية.

وارتدى ثيابه ومضى يستقل الاوتوبيس. وكان سعيدا كل السعادة تقريبا. وكان الاوتوبيس يجري كالسهم على الطريق المحصب بين المقاصير. لو كان بوسعه ان يطرد تماما ظل هذه الفكرة ! ولم يكن يفتقر الى اسباب لطردها، ولكن لماذا لم تكن تمضي عنه ؟ اليست الفكرة مبدأ منطقيا ؟ فلماذا كانت تصر على تعذيب روحه عميقا عميقا حتى انها تكاد لا تخصه ؟

لقد تساءل عن ذلك، وهو في الاوتوبيس، ممتلئا بالرغبة لمساعدة نفسه، ولكي يحرر رأسه من خيوط العنكبوت هذه، اخذ يتابع بعينيه الطريق بكل تفاصيله. وقد كان يعرف المنطقة حتى الاشباع، ولم يكن يأمل اية مفاجأة، الا ان يكون على الاكثر ظهور وجه جديد على رصيف، او لمعة دهان جديدة على احدى الردهات المألوفة.

واستولى عليه اضطراب مفاجيء : ولم يكن ذلك بتأثير التماعة ذهنية، بل بتأثير طاقة حدسية. اي حق كان يملكه بان يضع نفسه فوق البديهيات ؟ ذلك انه من البديهي ان شيئا ما كان في قلب زوجته. ودليل ذلك، بصرف النظر عن مسلكها الدنتوم، حاجتها الظاهرة لان تكون غالبا وحيدة، انها منذ مدة كفت عن ان تطلب اليه، كالسابق، ان يعود باكرا، وكان يبدو انها لا تكترث لعودته او عدم عودته، ولئن كانت ذات طبع وحشي منذ البدء، فان ذلك يتفاقم الان ويصبح مبالغا فيه. وقد حدث في الاسبوع الماضي، وهو امر غريب حقا، انها عادت الى « اوليفوس » بعده، حوالي الساعة العاشرة ليلا. ولقد انزعجت الى حد يصعب وصفه وكادت تغضب حين اشار الى تاخرها، بالرغم من انه اشار الى ذلك برقة وعذوبة وحيطة. وكان قد رآها ايضا تشتري اوراق رسائل، بالرغم من انها لم تكن تحب الكتابة قط، وانها كانت، من حيث كتابة الرسائل، شبه بكماء.

فما الذي كان يجري اذن ؟ وتطاير السؤال شظايا في ذهنه، بلا امكان للحل او للتطور. وظل قائما هناك. والتفت صورة فالنتين بورديغيرا حول حلقه لا في شكل عقلي، بل في شكل محسوس، مرئي، مطاط. واستشعر بالرغم منه شبه رغبة في الانطواء على نفسه : واخذته حركة رفض غريزي تلاشى منها ارتجاع رد الشكوك القذرة.

وبلغ زاوية الجادة حيث يهبط كل يوم، من غير ان يتمكن من دفع هذا الشعور الدبق المعذب. وانضاف الى ضيقه شعور غامض بالغضب او بالحزن الغاضب. واحس بانه يمشي فوق ارض مختلطة يستحيل عليه فيها ان يجد منفذا نحو النور.

وبعد قليل دلف الى بناية الشركة المرمرية الكبيرة ودخل المصعد فارتقى الى الطابق الذي كان عليه ان يأخذ منه اوراقا بعد ان يحقق في ركام من البوالص. وبدأ عمله بمزاج منقبض واشمئزاز، فمزق اوراقا ذات عناوين سيئة الوضع امام الالة التي كانت تصر على ان لا تضرب حرف«و» من غير ان تلصق به «ي» بصورة ساخرة.

وعند الظهر مضى ليتناول الغداء وهو ما يزال فريسة النفور والاضطراب. وكان يتغدى عادة في مطعم بالجادة نفسها داخل طابق ارضي مضاء بصورة اصطناعية، واسع وقذر، مليء بالاحواض وبالمرطبات الرديئة. ولم تكن له اية رغبة في ان يحدث الخادم، فاختار بسرعة طعاما باردا مع الفاكهة المعتادة. ورأى وكيل الشركة الكبير « روداس » جالسا الى طاولة : فشعر ازاءه بالغضب وتجنب تحيته. ووضع قائمة الطعام عموديا مسندا اياها باناء الماء، وتصنع انه مستغرق في قراءة اللائحة الطويلة. ولكن فكره كان في بيت « اوليفوس ». لا بد ان اليس كانت تتناول الغداء في تلك اللحظة نفسها، مستغرقة في وحدتها استغراقا مريحا، مفكرة بالساعة التي ستخرج فيها ومعها خطتها الجاهزة وفكرها الرضي. وكان بعد الظهر برمته لها، وهو بعد ظهر طويل، ولم يكن بها حاجة الى العودة قبل الساعة الثامنة او التاسعة، وهي منغلقة على سرها، محمية في ذكرى تصرفاتها السرية التي لا تخرق.

وفكر مونتوفيو : « عند الساعة الثالثة او الرابعة بعد الظهر ستكون في منزل بورديغيرا » واتاحت له هذه الفكرة الواضحة الى هذا الحد فرصة للدحض بمثل هذا الوضوح. فليست القضية بعد قضية امور غامضة او افتراضات او تنبؤات مختلطة، وانما هي قضية تصرف. وهذا التصرف ... لا يمكن ان يكون.

وقشر الفاكهة بهدوء. اجل، لا يمكن لهذا التصرف ان يكون. واستولى عليه فجاة نوع من الحيوية انبثق من عزائه الواضح، فنادى الخادم وطلع عليه بفكرة مضحكة وهو يشير الى رجل وامرأة كانا يقصدان المطعم دائما، وكان قد سبق له ان حدثه بشانهما في مناسبات اخرى.

وقال لنفسه وهو يغادر المطعم : « لا، لا يمكن لهذا ان يكون » وكان في فمه مذاق القهوة، وكان يتذوق في الوقت نفسه عزاء اكيدا رضيا. وكان اصيلا مشمسا حارا، وكانت الجادة تمتلىء بالاجسام من جديد بعد تلاشي الظهيرة، وكانت حمامات رمادية مرصصة تنزه حواصلها الكبيرة على ممرات الواجهات. واجتاز مونتوفيو شارعين او ثلاثة وهو مصمم على ان يضع حدا لقضية مدير اعمال « فاراس راي »، هذه

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

العقل البشري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

القضية التي طال امدها ، اذ ان صاحبها لم يكن ليقتنع بان يؤمن على حياته حتى ولو كان تأمينا من الدرجة الثالثة . ولكنه لم يجد المدير، واخبروه بانه لن يعود قبل الخامسة ، فوعد مونتوفيو بان يرجع اليه، وهبط قفص المصعد الاسود . واذ بلغ الطابق الارضي، اخذته تلك الحاجة، تلك النزعة التي لامبرر لها حقا ، والتي لم تبلغ بعد ان تكون خطة .

وكان يبدو ان هذه النزعة التي تولد فيه توحي اليه بان « الفكرة شيء ، والوقائع شيء اخر. فان الفكرة لا تقتل تماما ما لم تقابل بالواقع نفسه » .

واخذ يسير سيرا مستقيما حتى لا يستشعر الخجل في مناقشة الفكرة . ثم ان الوقت كان ذا سعة امامه. لقد كان منزل بورديغيرا قريبا من ساحة « الربيبليك » : انه ثاني البيوت الثلاثة المتشابهة في شارع يمتد من الشرق الى الغرب ، وهو غاص بالمخازن ودور السينما . واجتاز مونتوفيو مدخل الشوارع بعصبية طالب او ممثل مبتديء ، ولاحظ وهو يرى نفسه فجاة في واجهة احد المصورين انه كان ممتقع اللون، ممتقعا مخضرا، وان ظل الوجه لم يكن سببه انه لم يحلق ذقنه ، بل كان سببه اضطراب سحنته .

وكان يعلم انه لن يهدأ نفسا حتى يراه . وكانت الافكار قد راودته في غير مناسبة. وكان يحب ما هوعملي، واضح ، وما لم يكن يفسح المجال لاي شك . وقد كانت هذه الحاجة المفاجئة للتجسس ، هذا العمل الثقيل الذي لا يعترف به ، مذلا له بصورة فظيعة لو لم يسبق له ان درسه كما يفعل الان على ضوء متطلبات طبيعته بالذات. بحيث انه اعتبره كتحريض طبيعي لاعمق نوازعه ، هذه التي قد تكون اقلها وضوحا ولكنها اشدها انسانية بالتاكيد.

ولم يقض اكثر من عشر دقائق ليبلغ ساحة البيوت التي كان ينتصب فيها مبنى الماكن التي اتخذ بورديغيرا في احداها منزله العزوبي . وقد احس مونتوفيو طوال الطريق بذلك الخوف المبهم الذي تخلفه كل تجربة ندخلها سالمين وقد نخرج منها منهارين . وكان يضخم طبعا بصورة ثقيلة وكثيفة كل ماكان غير مجد وغير معقول في نوع التجربة التي يمارسها : ومع ذلك ، فلم يكن هناك اي سبب في الدنيا يستطيع ان يثنيه عن القيام بها : بل على العكس ، فان كل عقبة تنتصب فجاة لتمنعه من الوقوف مترصدا باب بورديغيرا ، كانت ستزعجه ابلغ الازعاج وستثير لديه احتجاجا شديدا ، قويا ، شبه حيواني .

كان عليه الان ان يرى . وهل كان بوسعه ان يرد ذلك الحدس الكبير الذي تكشف عنه العينان نفسهما ، حدس البداهة ؟ لقد احس باحساس غريب من الاستياء والحزن حين انتقل الى الرصيف المقابل ، امام باب المساكن . وكان الممر الواسع المظلم ينفتح خاليا امام المصاعد. ومر مونتوفيو . وراح يتوقف قريبا من زاوية الشارع ، عند مدخل احد الممرات الضيقة ، حيث يستطيع ان يراقب البيت الذي يشغل ذهنه كما يراقب رقعة طويلة من الرصيف المقابل . وكان بالقرب من المكان الذي وقف فيه حانوت للحاجيات الصيفية يعرض واجهتيه اللتين كانتا تكشفان عن تمثالي رجلين البسا ثوبين اسيويين واسعين ازرقين بلون السماء مصنوعين بحرير بلغ من رقته ان الجوانب المدعوكة منه كانت تبدووكانها ثنيات اضافية مصنوعة عمدا . وكانت تتراكم بالقرب من الثياب الفخمة اعلام صغيرة وستائر مزدانة وصولجان قديم وزوجان صغيران من الاحذية السوداء .

وبعد ان وقف مونتوفيو امام الباب الكبير ، جعل ينتظر وهو يتفحص بعناية الحوانيت القائمة الى جانب الدكان الصيني ، فلم يجد فيها مايشبهه في القدم والجاذبية . واستقرت عيناه لحظة على المتنوعات الريفية ، ولكنه في اللحظة نفسها اخذ يفكر ، كانه مقودا بجزر تيار فكري واحد ، تيار متدفق مائع ، بما عساه يحدث له لو خرجت اليس ذات لحظة من هذا البيت . وتحول حسابه الى غضب . ووعى اليقين الذي يمنحه اياه كون الدليل بين يديه في حالة قيام الخطيئة ، وقد قساه هذا الوعي واستثاره. كان كذلك كانه يقول لنفسه : « انني اقبض عليك ، فها انت الان في الشرك . انك لاتستطيعين ان تفلتي من الكذب ، الا ان تأتي توا الي ، ان تمثلي امامي. » واحس انه واثق من نفسه ، ورأى ان بوسعه ان يبقى الساعات الطوال حيث هو بلا حراك .

ولبث لحظة وهو على ذلك . وكان الناس يلمون به غير عابئين بما كان يبرمه ، ولم يكن اي موضوع صميمي يشغلهم في الظاهر ، وانما كانوا على عجل ، وكانوا محايدين . كانت له هو وحده قضية تحتاج حلا . كان نظره مشدودا الى واجهتي الحانوت الصيني ، ولكنه كان في اعماقه يجتر افكاره بلا هوادة ، محاولا ان يقسر ذاكرته على ان تمنحه نقطة يستطيع ان يسند اليها امكانية ظهور زوجته عند بورديغيرا . وتذكر حركات وبسمات . وكان يتذكر نفسه ، ويراه وحده مهيض الجناح بمشاركة اليس وبورديغيرا الغرامية ، وكان ينمو في كبده كره مرير حاقد ، يورث لديه الغثيان ، تجاه هذا المحدث الظريف ذي النظرة العسلية والملامح الدقيقة الذي دعاه يوما الى منزله . وبعد انتظار ربع الساعة الاولى ، شعر بنفاد صبر حائر قلق يزعجه ، بشيء يشبه الشعور بانه كان يريد هو نفسه ان يخلق الشر والمصيبة وانه لايسعه بعد الان ان يفلت من عواقب خلقهما .

وحين بلغت الساعة الخامسة والنصف ، ولم يخرج احد من البيت ، قال لنفسه بخجل وبعزاء مبكر انه لم يكن في منزل بورديغيرا احد ، حتى ولا بورديغيرا نفسه ، وان من العقل والرجولة ان تعتبر التجربة متنهية وان تسقط الشكوك والافكار السيئة والتصورات المعيبة . ولكنه سرعان مافكر بانه كان هناك ، وانه اذا انتظر لحظة اخرى ، فسيكون اوفر تأكدا من صبيانية جنونه ومن طابعه الهوائي المتحدي .

واخذ ينتظر بنصيب اوفر من الهدوء والسكينة ، مقنعا نفسه بيقينية ان احدا لن يخرج من البيت . انه سيزداد رضى مايزداد انتظارا . كان بوسعه ان يبقى هناك حتى الثامنة او التاسعة ، وقد يرى بورديغيرا قادما في ساعة العشاء . اجل ، لعل هذا نفسه كان ممكنا . وشمله احساس بالهدوء والامن ، فغادر المكان الذي كان قد توقف فيه وتوجه على غير عجل الى واجهتي المخزن الصيني حيث وقف يتأمل القطع المعروضة بودواهتمام. فالفاها عجيبة تفرض شخصيتها ، في مجموعها تفاصيلها ، وتنم عن حضارة دقيقة مخيفة لم يكن يريد ان يعيش فيها ساعة واحدة . ثم اتجه من جديد الى برج مراقبته . وحاول ، لكي يقضي الوقت بشيء من نفاد الصبر ، ان يجد شيئا يستلفت انتباهه على هذا الجانب من

الرصيف ، ولكن لم يكن ثمة الا واجهة بليدة لصباغ وصف رتيب للوحات المهنية عند زاوية باب قديم . واقترب ليتفحص احداها .

وكان ذات لحظة موليا ظهره البيت الذي ظل يراقبه حين حملتـــه غريزته على ان ينتقل فجاة مترددا مضطربا : كان بورديفيرا خارجا مـن منزله بصحبة امراة ، امراة هزيلة ، ترتدي ثوبا وحذاء فاتحين . ولقـد راهما من بعيد ولم يكن يجد الوقت ليختبيء قبل ان يتامل من جديد ، وهو يمد راسه خافق القلب ، ملامح المراة التي كان بورديفيرا يوقف معها في تلك اللحظة سيارة اجرة ويستقلانها ، وقد اخفت السيارة الرجـل والمراة لحظة ثم اقلعت بسرعة والمت به عن كثب .

وكان قد رآها بوضوح كلي ، فتوقف قلبه عن الخفقان . وارتمى الى خلف كمن يتجنب ضربة فأس . وابتعدت السيارة فخطا مونتوفيو نحـو الشارع خطوة تحريرية ، بتلك الاندفاعة الضعيفة التي تخلفها الهزة فـي جسمــك .

لم تكن المراة التي خرجت مع بورديفيرا هي اليس . الحمد لله ! لـم تكن لها علاقة بزوجته .ولقد وضحت لديه هذه البداهة منذ النظــرة الاولى اذ رآها وهو واقف على الرصيف ، وحين انزلقت ملامحها امامـه اذ دلفت الى السيارة بالقرب من بورديفيرا . كان وجهها هزيلا شديـــد التميز والبياض ولم يستطع ان يحفظ ملامحه تماما ، وكانت ترتدي ثوبـا واسعا فاتحا يوحي بانها اجنبية .

وتذوق مونتوفيو لونا من الفخر كما لو ان جميع عروقه تفتحت فجاة في انفجار سعادة مباشرة . وغمره في الوقت نفسه ، على غير تمييز ، نوع من الخجل من نفسه كان يستشعره بسعادة ، واحساس غريب ملتهب بالود نحو بورديفيرا ، احساس يشبه العرفان . وقد كان جديرا به تلك اللحظة ان يعانقه وان يجعل منه آلهـا .

واستطار ذهنه الى بيته في اوليفوس ، فكشـف له من جـديد دارا نبيلة سعيدة يجلس على عرشه وجه زوجته الشريفة البريئة من كـل ظن . وخيل اليه انه لن يستطيع الا ان يروي لها هذه المغامرة في المساء نفسه ، وسيكون فيذلك طلب صامت بالصفح .

وكانت شمس ذلك الاصيل الصيفي ماتزال مرتفعة ، وكانت غبرة ذهبية خفيفة تضع ملمسها المشع على اطراف البيوت ، فاصلة هكذا المادة عن المدى بالنور . وكانت المدينة تلتمع ،ويبلغ السير ذروته.وتنشق مونتوفيو النور وقد كان بوده لو يتلفن فورا الى بيته ، ولكنزوجته لن تكون فيـه تلك الساعة ، غير انهالابدقريبة منه ، في شوارع متماثلة . وفكر في ان لديه بعض الوقت لرؤية مدير فاراس راي ، فسلك احدى الطرقـــات الهابطة ، فرحا ، ممتلئا ثقة وحماسة . ودلف بخطوة خفيفة الـــى « الدياغونال » ، فبدا له عامل المصعد نفسه وكانه شاهد ونصير .

واستقبله مدير « فاراس راي » بكتفيه الهرقليتين وفمه الهزلي متدرعا بمزيد من الاحتراس . وكان وحيدا ، جالسا في مقعده براحة ، خلـف مكتب يشبه المكاتب الخمسمئة القائمة في ذلك المبنى الرمري الفخم . وبدأ المدير يقول : « اسمع .. اسمع .. » ثم القى عليه للمرة السابعة والثامنة الحجج التي تحمله على الا يؤمن نفسه ، على ان يفضل الا يؤمن نفسه . واضاف المدير وهو يرفع كتفيه الهرقليتين المعبرتين ، وكانما هو يعتذر :

– ليس من المناسب ان ارهق ميزانيتي بنفقات جديدة ...

فصاح مونتوفيو :

– بكل تأكيد . انت على حق . اعتبر انك على حق كامل . اعذرنـي فلن الـح عليك .

واستاذن اخيرا وهو يجدد اعتذاراته . وكان بوده لو يقلد المديــر العاصي وساما ، لو يركع امامه ملتمسا الصفح عن فضوله، وعن ازعاجه اياه وعن الحاحه ازاءه ، وخرج تتقدمه اعتذاراته المتكررة .

وكان فمه ضاحكا والفرح ينفجر في روحه :

على حق كامل !

ماذا يهمه ذلك كله ؟ لقدكان غارقا في الفرح . وكان معجبا بامراته ، وكان يشعر بانه يولد منجديد . اشهر قليلة ، ويصبح منزل اوليفوس له ، وسوف يتناول العشاء مع اليس مساء ذلك اليوم ، وسوف يفتـح النوافذ لرطوبة الصيف الليلية ، وستدخل المنزل طمانينة النـــاس الهادئين ، فما عساه يامل اكثر من ذلك ؟ سيكون بوسع بورديفيرا ان يواصل زياراته الى الابد ، لقد كان اسمه هو مونتوفيو ، ولن يلم بذهنه بعد الان اي شك .ياالهي ، اذا كنا حقا اسياد عقولنا ، فلماذا لانكـون اسياد محاكماتنا العقلية ؟ لماذا ندع لطيور الخارج المتوحشة ان تكتسح مدانا الداخلي الصغير ؟

ونظر الى الساعة ، وكانت السادسة والنصف ولم يكن بوده ان يعود الى الشركة . فما الفائدة ؟ لقد كان بعد ظهر ذلك اليوم شبيهـا بثمرة ناضجة . وكان ذهب مزرورق يتحدى الجو . وكان خير الامور ان يتذوق حريته ، وان يرى الناس يمرون ، وان يتوقف امام الواجهـات وان يضيع بين كثير من هؤلاء الناس المستعجلين . ومشى طوال ساعة ، وزار الممرات التجارية الملأى بالحاجات الثمينة المعروضة للبيع ، وقرا ارقام الصيارفة ، وراقب النساء اللواتي كن يمررن به ، وتوقف امـام باعة الحاجات التي كانت تثير اقل انتباهه ؟ ولكنه شعر بعد ذلك بضجر غامض ، وبتعب ما . ماالذي كان يستطيع ان يفعله ؟ وتذكر مطعـم « غامبرينوس » الذي كان يحبه كثيرا ، فتوجه اليه .

وكان مطعما كبيرا مظلما مغلف الجدران باخشاب رصينة ، مزدانـا باواني ثمينة من « بافيير » مع مصاريع وزجاج مزرق كان يفصل الحجرات الصغيرة الخاصة فيما بينها . ولم يكن نور النهار يدخله الا من شبـاك صغير مرتفع . وكانت صحف مطبوعة باحرف غوطية لاتفهم معلقـة بقضبانهـا .

وجلس مونتيوفو الى احد طاولات الصالون وطلب الطعام المعتـاد . وغمره شعور راحة ونضارة لا متناهية . كان على الطاولة صحفة مـلأى « بالبريتزل » وآنية صغيرة بيضاء للخردل .

واخذ يستعيد نهاره على مهل ، منذ البدء : محادثته مع اليس ، ورحلة الاوتوبيس ، والشكوك التي تتجسد ، والغداء المليء بالمرارة ، وحركات تجسسه ، والضيق الذي اعتراه ، واخيرا مفاجاة الظهـور . وكان شعاع سريع قد اضاء المشهد . ولم يلبث الا لحظات ثم اختفـى ومع ذلك فقد كانثمة وقت اوسع مما ينبغي ليشمل بنظره المراة ووضعها وملامحها المختلفة اشد الاختلاف عن ملامح اليس . وقد اتيح له ان يرى الود المحب الذي كان بورديفيرا يغلفها به . وحين المت السيـــارة به ، كان كلاهما يضحك ، وكانت هي منحنية بعض انحناء الى الخلف، وكان هو فرحا نابضا .وكانت المراة ترتدي ثوبا فاتحا جدا وقبعة رصينة مائلة بعض الميل الى جانب ، قبعة لم تكن تغطي الا قسما من رأسهـا .

وكم نظر اليها مونتوفيولدىمرور السيارة المسرعة ! ولم يكن يستطيـع ان يتذكر ملامح المراة ، وانما راى انها لم تكن ملامح اليس ، راى ذلـك في ضرب من العلمالمضيء ، العام ، المتفوق على المعرفة الخاصة . لقـد

تعلق النظر تعلقا قلقا في تلك اللمحة التي كانت تمر ، لم تكن أياها ، وكان هذا بحسبه . ولقد رأى رؤية واضحة .

وتناول مونتوفيو جرعة من كأسه ، ففوجيء على الفور وهو يفكر بانه يستطيع ان يجلب معه شيئا الى البيت، ذلك المساء: قطعة لحم مهروسة، او قطعة من لحم الخنزير ، وهما شيئان كانا يروقان لاليس. لقد مضى عليه وقت طويل وهو يصل الىالبيت فارغ اليدين ، وهو لم يلاحظ ذلك حتى الساعة . ان لنا جميعا نصيبا في التغيرات التي تحدث وتعكر شيئا فشيئا علاقاتنا . وان الوان التودد هامة دائما . ان عاطفة آذيناها او جرحناها يمكن ان تتحول فجاة الى دواء مرير الطعم ، او الى جرح او الى مذاق حامز . فلعل وحشية اليس كانت معزوة الى سلسلة من الاثارات اللاواعية عنده ، اثارات رقيقة ، صماء ، مجهولة ، من تلك الاثارات التي تظهر وتنمو بالخفية مع نمو الامراض المميتة . وأجال نظره في القاعة ، وكانت رطبة مظلمة . وحملت له نسمة فكرية ، كانما لتنعشه من الضجر والتعب ، صورة المرأة التي راها تمضي مع بورديغيرا وصورة السيارة ، والتحرر الذي احدثه المنظر في نفسه . وجاءته فكرة متدرجة بان امرا واحدا كان غريبا .واستعرض المشكلة . كيف يمكن له ان يشرح لنفسه انه لايتذكر على الاطلاق الملامح الدقيقة للمرأة ؟ لعل ذلك عائد فقط الى سرعة السيارة ، والى اضطراب تلك اللحظة ، والى الحاجة الاولية الطاغية في ان يتأكد من انه لم يعرف وجها ما قبل ان يتفحص الاخر بصورة مجدية ...ان ماهو مؤكد انه رأى طيفا ليس هو طيف اليس . وخارج ذلك ، اليست جميع الاطياف متشابهة ؟ لاسيما اذا كانت ترتدي ثيابا تحددها في جنس معين وتميزها من اطياف اخرى . واذن ، فان اليس لم تكن تحمل ذلك الوجه ولم تكن ترتدي ذلك الثوب . صحيح ان النساء جميعا يتزين بالطريقة نفسها ، وان اليس كانت هي ايضا شقراء ، كامرأة السيارة . ولكن لماذا لم ينظر الى الملامح نظرة ادق ، ولماذا لم يكن يعرف حقا « كيف » كانت تلك الملامح؟ وترك مونتوفيو كأسه على زجاج الطاولة. اتراه كان قد رأى جيدا ؟

وغمره فجاة نوع من الضيق او من الانزعاج ، انزعاج فكري لايمكن شرحه ينبعث بالرغم عنه . لقد كان هو نفسه مشهدا من غير شك !اليس هو مأخوذا بالشكوك الان ؟ وهل كان من الممكن طرح مثل هذه الاسئلة ؟ لقد رأى بعينيه ، بعينيه . لا بعيني الاخرين ، وانما بعينيه هو ! وتلك المراة لم تكن اليس ! ان لها ملامح اخرى ، انها كائن مختلف كل الاختلاف وذلك الثوب ، بعد ! بالرغم من ان اليس كانت تملك ثوبا فاتح اللون . ثوب من الحرير الابيض.ولكنها كانت تحتفظ به للصيف . وسخر مونتوفيو من نفسه ! انه كان وما يزال فريسة الانطباعات المتناقضة .

ولكن سخريته جلبت تاملا ملحا ارتد عليه . وظل عقله يعمل بالرغم من ارادته . ورفع عينيه فرأى زبائن المطعم القليلين يتحدثون ، كما رأى امراة سمينة متبذلة شقراء تتناقش مع رجلين المانيين . وهذه المرأة ايضا لم تكن تشبه امراة السيارة . ولكن كيف كانت امراة السيارة حقا ؟ واصر على ان يفكر فيها ، وقام بجهد قصير مبهم في ذاكرته . ولكن عبثا فعل ، فهو لم يتمثل الا شيئا ما عاما ، وجه امراة ، وجها نمرذجيا . ولكنها لم تكن اليس طبعا . فلنفرض ان الثوب اختلط علينا ؟ فان الملامح كانت مختلفة بلا شك ، وكذلك الوضع . وليس هذا انطباعا قد احس به ، وانما هيالبداهة عينها . صحيح ان النور كان يستطيع ، وفق الطريقة التي ينعكس بها على الاشياء تفاصيل وجه ما ، بينما يظل اللون والسحنة هما نفسهما . ولكن مافائدة المحاكمة العقلية اذا كانت المراة مختلفة ، اذا كانت اذا كانت امراة اخرى تماما ؟ ان البداهة ليست هي الانطباع . ان سرعة ظهور الملامح قد تقلب انطباعا او تشوهه ، ولكنها لاتستطيع ان تقلب امرا بديهيا او تشوهه .

ونادى الخادم ، وطلب كاسا اخرى ، وظل مطرق الرأس ، تعبا بعض الشيء اقل سعادة مما كان من قبل . لقد كان غالبا فريسة هذا النوع من الخيبة تجاه نفسه ،هذاالانهيار المعنوي المرير الذي سمم كثيرا من فترات حياته . وتمثل المشهد مرة اخرى ، وهو شبه غاضب على نفسه ؟ وتذكر اللحظة التي توقف فيها امام منزل بورديغيرا والوضوح الكامل الذي ميز به الاختلاف بين زوجته وبين المرأة التي كانت خارجة .وتعلق بتلك الصورة الحسية ، محاولا ان يمنح ذهنه سلطة المخلب . ولكن راسه لم يكن قط مخلبا ، ورويدا رويدا نبعت في ذهنه الوان من الحجج والافتراضات السيئة المقصد والعناصر المتناقضة التي لم يكن يستطيع ان يحصرها او يحذفها . لقد كان انسانا بليدا . فلماذا كان ذلك الشك يثير قرنه ؟ ايمكن الا يكون قد رأى بوضوح ؟

وانقاد لسلسلة من الذكريات التي تراكبت فوق وقائع ذلك الاصيل ، فقال لنفسه ان سببا ما قد دفعه الى الترقب والرصد . كان بديهيا ان اليس كانت تكن شيئا في قلبها . وكانت السيارة التي تقل بورديغيرا وصديقته قد مرت بسرعة لاتتيح للنظر ان يدرك الا رؤية دائخة . دائخة ؟ بكل تاكيد ، قابله للدوار . امن الممكن ان يكون قد خدعه الدوار ؟ وظل بضع لحظات قابعا ـمعنويا ـ ازاء هذه الفكرة ، ثم اتته الحجة الاخرى ،

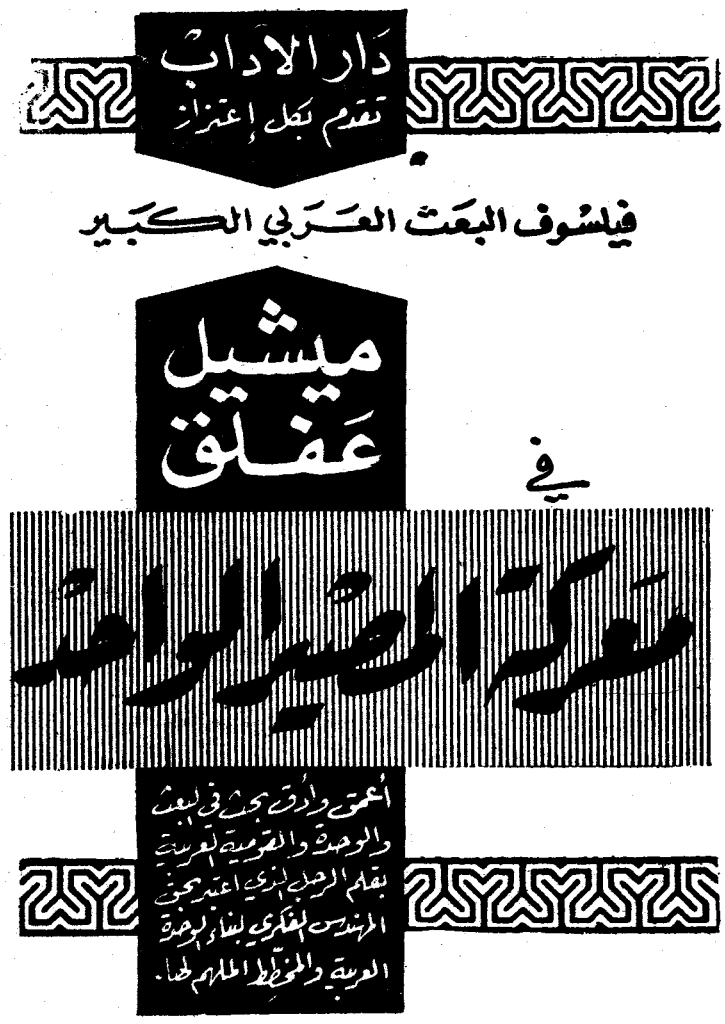

الفكرة البعيدة الصميمة بان رغبته بالا يعرف اليس في تلك المرأة يمكن ان تكون هي التي دفعته الى ان يبتسر حتى الانطباع النظري. الانطباع؟

ولكن مع ذلك ، الم يكن للبداهة علاقة بالانطباع ؟ ان الإمر متشابـــه الان . وظل مشدوها عمليا ، وقضى بضع دقائق قبل ان يصدر ردفعله .

وفكر في نفور ، بل حتى في اشمئزاز ، بان لون شعر المرأة يمكن ان يعتبر من بعيد على انه لون شعر اليس. ولئن كان يذكر الثـوب الفاتح الذي راها ترتديه في الصيف الماضي ، فلا يسعه ، بطريقة شريفة ، الا يدع مجالا للشك. ومنذا الذي لا تخدعه رؤية سريعة ؟ الا يمكن لوجه واحد او لطيف واحد ان يظهرا فجاة وكانهما مختلفان اذا اخضعا لتاثير ظروف نفسية معينة لدى المراقب ولتشويهات معينة في مختصر الصورة او مكانها او حزكتها ؟ فلعل المرأة التي بدت له انها ليست اليس كانـت اليس بالذات . ولم لا ؟ اكان بوسعه ان يثق ثقة مطلقة في رؤيةنسبية ؟ بل هل كان بوسعهان يتعلق بصورة لم يكن يستطيع ان يبني خطوطها مجددا في ذاكرته ولا يعرف كيف كانت ؟ على ان الانطباع الاخر ، بالمقابل ، كان حيا ، الحدس الاخر ، الفكرة الاخرى : ظل ذلك الاعتقاد الصميمي الذي كان قد حمله على التفكير تدريجيا وبصورة متكررة بان هناك ، بكل تأكيد شيئا ما بين زوجته وبورديغيرا . ولكن لماذا تراه كان يمزج هكـــذا البديهيات ؟ اجل ، كان يخلطها ، ولم يكن بوسعه الا يخلطها ، ولـم يكـن يستطيـع ان يقاوم اندفاعة كيانـه تلـك ، وهـا ان البداهتين ، الاستقرائية والنظرية ، تتراكبان وتختلطان ؟ وها هو يشعر في رهبة غامضة ، بان الاولى كانت تسيطر تدريجيا على الثانية .

وبالاختصار ، لم يكن ليعرف شيئا ، بصورة يقينية واضحة جديـرة بالايمان ، عن المرأة التي رآها تخرج مع بورديغيرا . لقد كان يمكن ان تكون اية امرأة وحتى اليس . امرأة ما ، شبيهة باليس . وتساءل فـي اعماقه : « لننتظر ! » وجعل يرهق نفسه ويجهدها كما يفعل امام شاهد دعوى : « لننتظر ! كيف كانت تتميز ، كيف كانت الاخرى ؟ »

وظل مأخوذا امام السؤال ، متفكرا ، عاجزا عن الاجابة . وها انه يبدو له بعد الان ، بصورةواضحة ممكنة سهلة الادراك ، بانه قد خدع بسرعة الرؤية ، وان المرأة يمكن جدا ان تكون ، في الواقع ، أليس .

واستولى على مونتوفيو اضطراب شديد ، وتراكم في ذهنه فيـض من الحجج المعاكسة . اتراه كان من جديد ضحية كذبة ؟ او كان مـن الممكن ان يصدق ؟ انهلميكن من ذلك على يقين . انه لم يكن على يقـين من شيء . وان بوده ان يفعل المستحيل ليعود الى خلف ، الى اللحظـة التي رأى فيها المرأة تخرج مع بورديغيرا ، ان يفعل المستحيل ليمكنه تثبيت تلك اللحظة التي لم تكن قابلة للتحقق التي لم يكن ممكنا ان يحكم علـى حقيقتها . شعر يخفق اوفر الافكار جموحا واكثرها تناقضا ، كانها ساعة اعيد ملؤها ، وكان يخيل اليه ان الارض تميد تحت قدميه ، وان اي جسم لم يكن ليفقي فكره المرمض المرهق ؟ وفي تلك اللحظة جعل نبضه ايضا يخفق بقوة ، فاذا بعاصفة من الحقد الداخلي على بورديغيرا ومـن الحزن الغاضب والمرارة تجاه امرأته تهز روحه .

ونهض نهضة مضطربة عنيفة فاوشك ان يقلب آنية الخردل وصحـن « البرتزل » والكأس المستقرة على الطاولة ، وتوجه نحو المكتب وتناول سماعة التلفون بيد مضطربة ، وادار بقلق رقم بيت « اوليفوس »وانتظر لحظة ، متدلي اليد ، ليقطع رنين الطلب رفع السماعة الاخرى . ولكـن الحاح الرنين استمر بلا انقطاع ، مهددا بان يظل الى جواب .

وعاد مونتوفيو بعد ذلك الى طاولته . وكان يحسب انه يتمثل مشهد الاصيل والمرأة التي تخرج من بيت بورديغيرا. ولكنها كانت الان في ذهنه زوجته هي التي تخرج ، ولم ينتشوه من جراء ذلك الانطباع الذي كـان يحفظه من الاخرى . ولكن هل كانت هناك امرأة اخرى ؟ لقد كانت الصور تتجاوب فيما بينها ، ولميكن يستطيع ان يحكم بانها كانت تتمايز ، كمـا انه لايستطيع ان يحكم بالعكس هل كانت هناك امرأة واحدة ام امرأتان ؟ انه لم يكن يملك اي دليلعلى ذلك ، وكان هو نفسه يرى ذاته وسط تردد وحيرة كاملين .

واحس ان يأسا باردا يكتسحه ، عصبية راعشة ، مردها الى عجزه عن البت والتقرير والاختيار بين معطيات عقله وبقايا ذكرى رؤيته . لـم يكن شيء مما رأى باقيا على وضوح وتميز وانحسام . ولم يكن يعـرف من ذلك الان اكثر مماعرفقبل تجسسه امام بيت بورديغيرا . بل انـه الان اكثر اضطرابا واشد عجزا وضياعا .

ورمى على الطاولة قبضة من القطع النقدية . واندفع الى الشـــارع . وهناك كان هو سيلادينيو مونتوفيو ، وكيل التاميذات ، موليا ظهره باب مطعم « غامبرينيوس » لايدري مايفعل ولا الى اين يذهب ، وقد ارتخت شفته السفلى في تعبير مذعور ، مشلول ، مصعوق .

ادوار دو ماليا

ترجمة سهيل ادريس